بصائر المعرفة القرآنية

أسس علم أصول التفسير

من كتاب (الأساس والتنوير في أصول التفسير)

أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن والدراسات القرآنية

الفصل الثاني: أسس علم أصول التفسير

الأساس الأول: تعريف علم (أصول التفسير):

ما تعريف علم (أصول التفسير)؟

لغة: الأصول جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، أو هو قاعدة البنيان.

وأما اصطلاحًا: فإذا كان تعريف (أصول الفقه): هو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه[١] **فإن علم أصول التفسير هو**: العلم بالمبادئ التي يُتوصل بها إلى التفسير، وتبنى عليها جزئيات التفسير، ويُعرف بها فهم القرآن، ومناهج المفسرين[٢].

---

(١) التعريفات ص٤٥.

(٢) فررت من بدء التعريف بكلمة "القواعد" لئلا يتعقب بأن القواعد جزء من أصول التفسير، فهذا التعقب في غير محله؛ لأن القواعد التي ينصون عليها في تعريف أصول الفقه يعنون بها الماهية اللغوية، وكذلك في تعريف أصول التفسير، والقواعد التي يذكرونها باعتبارها قسمًا من أصول الفقه أو أصول التفسير يعنون بها ما خصه علماء الفن بهذا الاسم، ولكنني لاتقاء اللبس آثرت هذا التعريف حتى لا يرد الإشكال المذكور مع أنه لا محل له.

الأساس الثاني: أهمية علم أصول التفسير:

كيف تقنع غيرك بأهمية علم أصول التفسير؟

الجواب: لعلم أصول التفسير أهمية خاصة تظهر فيما يأتي:

أولاً: تظهر أهميته من خلال معرفة غايته، فغايته أن تعرف الكيفية التي بها تفهم معاني النَظْمِ القرآني الكريم، وذلك يعني أننا فهمنا مراد الله ﷻ من كلماته، وهذا يعبر بنا إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ثانيًا: حصول القدرةِ والمَلَكةِ في العقل البشري لفهم معاني القرآن الكريم، واستخراجِ أحكامه وحِكَمِه على وجه الصحة والدقة العلمية، لذا قالوا: من حُرِم الأصول حُرِم الوصول، وقال العلامة ابن سعدي: "ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان، والأصول للأشجار، لا ثبات لها إلا بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تَثْبُت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويَقْوى"[1].

---

(١) طريق الوصول (ص: ٩).

ويمكنك أن تزيد هذا الكلام وضوحًا بأن تقول: لولا الأصول لما وجدت فروع، والذي يتكلم في الفروع دون أن يعرف الأصول مشوش مرتبك كمن يحاول أن يبني الدور الثاني دون وجود أساسه من قواعد البنيان ومن الدور الأول.، ولذا قال أبو القاسم عبيد الله بن عمر بن أحمد ﷺ: «إن من حق البحث والنظر الإضراب عن الكلام في فروع لم تحكم أصولها، والتماس ثمرة لم تغرس شجرها، وطلب نتيجة لم تعرف مقدماتها »[١].

والمَلَكة: سجية تقذف في العقل والقلب بسبب كثرة المذاكرة والملازمة، والمدارسة للعلماء الحذاق، فيكون أقل أحوالها ألا يستمرئ المتكلم الباطلَ في فهمٍ في فن معين، وأن يظهر له مايتيح التعرف إلى المعاني المتعلقة به، يقول الأصمعي ﷺ: "سمعت أعرابيًّا يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسن بالفروع"[٢].

وبذا تكون ثمرة معرفة أصول التفسير: أن يعرف كيف يفسر القرآن الكريم على الوجه الأمثل الذي تعبدنا الله ﷻ به، وليس على الوجه الذي تهواه نفس المتحدث، وعندما تتكون الملكة الأولية يتمكن حينها من إيقاف نفسه من الوقوع في الخطأ، كما يتمكن من الشعور بأخطاء المحرفين القدماء والمعاصرين.

ثالثًا: إيجاد النظرة العامة المتوازنة لتفسير النصوص مما يترتب عليه العدل في حياة الناس: كما جاء عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «... وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ..»[٣]؛ ولذا قال ابن تيمية ﷺ: «لابد أن يكون مع الإنسان أصولٌ كليةٌ تُرَدُّ إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات، وجهلٍ وظلمٍ في الكليات، فيتولد فسادٌ عظيم»[٤].

ويُتصور العلم مع الظلم بأن يكون عند المرء تفسيرُ الوسيلة، لكنه ينوء أن يحمل معه تفسير الغاية أو يطبقه في حياته، أو أن يكون مقصرًا أصلًا في تحصيل تفسير الوسيلة وإدراكه.

وعدم وجود الأصول الكلية يفضي إلى تأويل الكتاب على غير تأويله الذي أراده الله ﷻ أي (التأويل البعيد (الفاسد) أو (اللعب)، فيقع فيما ذكره النبي ﷺ في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْكِتَابَ وَاللَّبَنَ»، قَالَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: «يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا» فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ قَالَ: «أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبَنَ

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٤٨٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٤٨٨).

(٣) أبو داود (٤٨٤٣)، وحسن سنده الحافظان العراقي، وابن حجر. فيض القدير (٥٢٩/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٣).

فَيَخْرُجُونَ مِنْ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ»، وفي رواية: «يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ»[١].

رابعًا: ليستطيع طالب العلم حفظ العلم المتعلق بالأصول بأبسط طريق وأقرب منال كما قال الإمام الزركشي ﷺ: "فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها... والحكيم إذا أراد التعليم لا بد له أن يجمع بين بيانين: إجمالي تتشوف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه، ولقد بلغني عن الشيخ قطب الدين السنباطي ﷺ أنه كان يقول: الفقه معرفة النظائر"[٢]، ومما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: "العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا أرواحه، ودعوا ظروفه"[٣].

خامسًا: لتستبين القوانين العامة في معرفة تفسير القرآن الكريم، كما قال الزركشي ﷺ: "ومعلوم أن تفسيره يكون بعضُه من قبيل بسطِ الألفاظِ الوجيزة وكشفِ معانيها، وبعضُه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض... ولهذا لا يُسْتغنى عن قانونٍ عامٍّ يُعَوَّلُ في تفسيره عليه...:

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ هو سحرٌ، وما سواه كلامُ

وفي هذا تتفاوت الأذهان، وتتسابق في النظر إليه مسابقةَ الرِّهان، فمِنْ سابقٍ بفهمِه، وراشِقٍ كبد الرمية بسهمه، وآخر رمى فأشوى، وخبط في النظر خبط عشوا"[٤].

---

(١) أحمد (١٧٣٥٦)، والرواية الأخرى عند أحمد (١٧٤٥١)، وحسن الأرناؤوط إسنادهما، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣ / ٤١٧): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وهو لين، وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٧٧٨).

(٢) المنثور في القواعد (١/٦٥).

(٣) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر (ص: ١).

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٥).

الأساس الثالث: نشأة علم أصول التفسير

(وهنا نعرف كيف كان النبي ﷺ والصحابة ﷺ يفهمون القرآن الكريم):

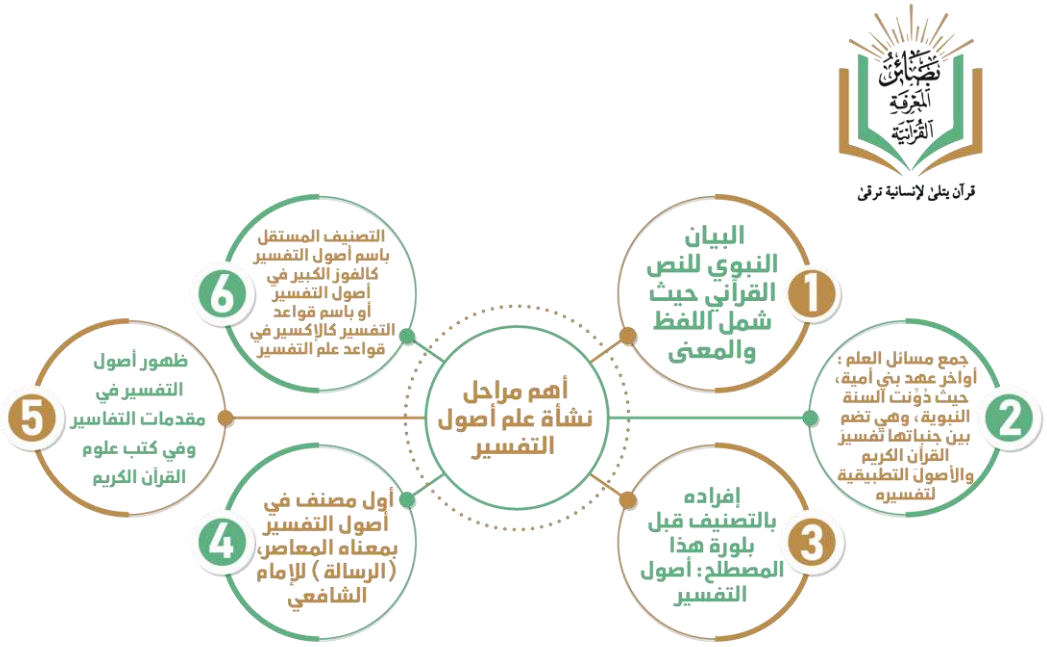

كيف نشأ علم أصول التفسير؟ وهل كان الصحابة ﷺ يعرفونه كما هو مدون اليوم؟

جواب ذلك في الآتي:

أولاً: نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين في غالبهم، ولكنهم امتازوا بالبيان في ألسنتهم حدًّا أدهش غير العرب، كما في إعجاب الشاعر الألماني (جوته) بقصيدة ابن أخت تأبط شرًا[(١)]، وبهذه الإبانة الفائقة للغتهم نزل القرآن، كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] فجعله مبينًا لشدة وضوحه واصفًا إياه باسم الفاعل، وحقه أن يوصف باسم المفعول، ولكنه عدل عن ذلك إلى اسم الفاعل؛ لشدة ظهور الإبانة فيه حتى كأنه يتكلم بذاته، ولذلك كان العرب والعجم يسلمون إن قرأوه إن لم يحل بينه وبينهم حاجز العناد والتعصب.

ثانيًا: حفظ النبي ﷺ ألفاظ القرآن حتى يبلغها أمته، فهو معصوم في حفظها وتبليغها كما سمعها من جبريل عليه السلام، ثم تكون العصمة عن نسيان الألفاظ للأمة في مجموعهم بعد تبليغهم، كما فهم ﷺ معاني القرآن حيث ضمن الله له ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ

---

(١) هي قصيدة أنشأها ابن أخت تأبط شرًا، وأعجب جوته بها عندما ترجمت إلى الألمانية، فاستفز يحيى حقي محمود شاكر بمقال يتعجب فيه: كيف يعجب شاعر ألمانيا العظيم بشعر لبدوي، فأنشأ شاكر كتابه "نمط صعب، ونمط مخيف" للرد على هذا التصاغر الثقافي، ومطلع القصيدة:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيـــلًا دمه ما يـــطل

انظر: كتاب نمط صعب ونمط مخيف، لمحمود شاكر (ص: ١).

فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] [(١)]، ونقل للعالم كل ألفاظ القرآن، وهيئة أدائه (الترتيل)، وكذلك نقل لهم معانيه قولاً وفعلاً وتقريرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

وبمجرد نزوله فهمه المخاطبون به ابتداء من القرشيين مسلمهم وكافرهم، ثم ضبط الصحابة ﷺ فهمه جملة "أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه"[(٢)].

ثالثًا: يستخدم العرب في كلامهم أساليبَهم المعتادة مثل: الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، والبديع اللغوي بأصنافه، والتشبيه، وغيرها من علوم البيان والمعاني والبديع، وهي تفتقر إلى علمي النحو والصرف، والقرآن الكريم جاء على حسب هذه الأساليب العربية إلا أنه فتنهم باستعمالها استعمالاً يفوق بلاغتهم من حيث البناء اللفظي، ومن حيث التصوير المعنوي، فلم يجد عندها معارضوه شيئًا يعارضونه به إلا أن وصفوه وصفًا محسوبًا له لا عليه، وهو قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [المدثر:٢٤].

رابعًا: نشأ علم التفسير القولي عند احتياج الناس لمعرفة معنى قرآني، ونشأ معه علم أصول التفسير؛ إذ استبانت منذ العصر الأول مصادرُ التفسير الأساسية، (ومنها: القرآن الكريم، والنبي ﷺ، واللغة العربية)، وفي ذلك قال الله -تعالى ذكره-: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، فلما قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ احتمل ذلك أن يبين ﷺ لهم اللفظ، لكنه -تعالى مجده- لما أتبع ذلك قولَه: ﴿ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ فهمنا أنه أراد المعنى أيضًا، فإما أن يبينه باللفظ القرآني مباشرة، وإما أن يبين معنى اللفظ القرآني عند الحاجة لبيانه بلفظه الشريف ﷺ، أو فعله الممجد المنيف ﷺ، وقال النبي ﷺ: «ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العِيِّ السؤال»[(٣)]، وقد قال هذا زجرًا لمن أفتى في التيمم ما ليس له به علم؛ إما لأنه اجترأ ففسر آية التيمم على غير وجهها، ولم يضعها في موضعها، وإما لأمرٍ آخر، فعلمهم ﷺ أن من مصادر التفسير الاجتهادَ من العالِمين المتمكنين في الفهم، ويفصل الله ذلك تفصيلاً يقطع قول كل خطيبٍ، فيقول -تعالى جدُّه-: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣]، ولفت النبي ﷺ نظرهم إلى أن أول مصادر التفسير: القرآن ذاته، كما في بيان

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب: تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم (ص: ١١٣).

(٢) انظر: التفسير والمفسرون (١/ ٣٨).

(٣) أبو داود (٣٣٦)، واللفظ له، ابن ماجه (٥٧٢)، وقد حسنه عدد من أهل العلم منهم الألباني.

معنى الظلم الوارد في آية الأمن في سورة الأنعام...وهذا النص جمع بين التفسير والإشارة إلى أصوله، وبالأخص إحضار السياق عن ترجيح معنى على آخر.

خامسًا: في أواخر عهد بني أمية وأول عهد العباسيين كانت الخطوات الأولى للتصنيف والتدوين، حيث دُوِّنت السنة النبوية، وهي تضم بين جنباتها تفسيرَ القرآن الكريم، والأصولَ التطبيقية لتفسيره؛ إذ كانوا ربما ذكروا معنى الآية مبينين سبيل اختيارهم لهذا المعنى، فذلك أشبه بالإشارة إلى الأصول التي تبنى عليها الفروع.

سادسًا: ثم ما لبثوا حتى اتجه العلماء إلى فصل العلوم بعضها عن بعض، وبدأوا مرحلة التخصص لكل فن من فنون العلوم، فأصبح للحديث علماؤه ومصنفاته، وللتفسير علماؤه ومصنفاته، إلا أن أهل العلم لم يفردوا أصول التفسير بالتأليف تحت هذا المصطلح: (أصول التفسير) كما أفردوا أصول الفقه، ومصطلح الحديث، وسبب ذلك: أن العلومَ جميعَها تتعلق بأصول التفسير، فالحديث يعد أصلاً من أصول التفسير قوليًّا وعمليًّا، والفقه نشأن عن فهم القرآن، فقواعد استنباطه من القرآن تعد أصولاً للتفسير، فهي الأساس في فهم التفسير، ولعل هذا برهان من زعم أن التفسير نهاية العلوم، وكلامه يستحق التفصيل، ولأجل ذلك أصررت على أن رسالة الشافعي لم تكن إلا أصولًا للتفسير لكن الفقهاء والأصوليين ادعوها خالصة لهم في زعمهم لتعلق كثير من أمثلتها بعلم الفقه الاصطلاحي، ثم حاول كثرة من أهل العلم تدوين أصول التفسير من خلال كتب علوم القرآن، ومنهم من جعل علم الأصول في مقدمات تفسيره، دون النص على مصطلح أصول للتفسير، وعدم إفراد هذا العلم بهذا المصطلح دعا العلامة سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ)رحمه الله لأن يقول: "إنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أجد أحدًا منهم كشفه في ما ألفه، ولا نحاه في ما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق الناكبة عن جمر الطريق لوضع قانون يعول عليه ويصار في هذا الفن إليه"[(١)].

من أول من صنف في أصول التفسير وأصول الفقه؟ وما العلاقة بينهما؟

سابعًا: يمكن أن يُشار هنا إلى الإمام محمَّدِ بن إدريس الشافعيّ (ت٢٠٤هـ) رحمه الله باعتباره أولَ من كتب في أصول التفسير بمعناه المعاصر؛ إذ وضع كتاب (الرسالة) في الأصل في معاني القرآن الكريم، فهي أولُ إخراجٍ علميٍّ في العلمين: أصول التفسير وأصول الفقه، حيث تحدث فيها عن الكتاب والسنة، وعن مراتب البيان، كما بين فيها الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، وهذه كلها علومٌ مشتركة بين أصول الفقه وأصول التفسير، ولم يسبق الشافعيَ أحدٌ إلى ذلك كما قال الإمام الجويني رحمه الله في شرح الرسالة[(٢)]، ويجوز لنا أن ندعي أن الشافعي ألف هذا الكتاب في

(١) الإكسير في قواعد التفسير (ص: ٢٧).

(٢) البحر المحيط للزركشي (١/ ٧).

أصول التفسير، وإنما دخل علم أصول الفقه تبعًا؛ إذ من المعلوم أن الشافعي ألف ذاك الكتاب بناء على طلب إمام الدنيا عبد الرحمن بن مهدي ﵀ عندما سأله أن يؤلف له كتابًا في معاني القرآن(١).

ما الأشكال التي ظهر فيها علم أصول التفسير في أول الأمر؟

ثامنًا: ظهر علمُ أصول التفسير في الآتي:

المورد الأول: في مقدمات التفاسير التي تشكل مادةً عظيمة رائعة في هذا الفن كمقدمة الطبري ﵀.

المورد الثاني: في كتب علوم القرآن الكريم حيث شكلت المادة الأساسية لأصول التفسير، إذ كان فهم القرآن المجيد أحد ثلاثة أقسام تكونت منها كتب علوم القرآن، **فعلوم القرآن ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: ما يتعلق باللفظ القرآني: كمباحث التحمل القرآني، وجمع القرآن، ونحوها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالرسم القرآني.

(١) لي بحث عن: العبقرية والنبوغ عند الإمام الشافعي في التفسير. نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/ جامعة قطر.

القسم الثالث: ما يتعلق بالمعنى القرآني: ما تعلق بالتفسير، كأسباب النزول (السياق التاريخي للقرآن الكريم)، وعلم الاتصال القرآني (السياق الموضعي)، ومباحث الدلالات، ويدخل فيه بصورةٍ ما: نزول القرآن، كالمكي والمدني.

ما العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن؟

العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن علاقة تداخلٍ، فقد كان علم أصول التفسير جزءًا عظيمًا من علوم القرآن، فكان المؤلفون في علوم القرآن يمزجون بين علوم التفسير وأصوله وعلوم القرآن، ولأجل هذا الامتزاج ألف السيوطي كتابين في علوم القرآن:

الأول منهما سماه: (التَّحْبِيرُ فِي عُلُومِ التَّفْسِيرِ)، فضمنه أنواع علوم القرآن التي ذكرها جلال الدين الْبُلْقِينِيُّ (ت٨٢٤ هـ) في كتابه: (مواقع العلوم من مواقع النجوم) مَعَ زِيَادَةٍ مِثْلِهَا وفَوَائِدَ سَمَحَتِ الْقَرِيحَةُ بِنَقْلِهَا[١].

الثاني: ثم لما رأى كتاب البرهان للزركشي ألف كتابه الكبير: (الإتقان في علوم القرآن)، وجعله مُقَدِّمَةً لتفسيره (مجمع الْبَحْرَيْنِ وَمَطْلَعِ الْبَدْرَيْنِ الْجَامِعِ لِتَحْرِيرِ الرِّوَايَةِ وَتَقْرِيرِ الدِّرَايَةِ)، وهذا يدل على أن أصول التفسير كانت جزءًا من علوم القرآن، ثم انفصل هذا الفن عن علوم القرآن، واستقل بالتأليف.

الأساس الرابع: أهم المؤلفات في أصول التفسير:

اذكر بعض المؤلفات في أصول التفسير؟

يمكن تصنيف المؤلفات في هذا العلم الشريف إلى ست مجموعات:

المجموعة الأولى: كتب مصرحة بأنها في أصول التفسير: ومنها:

١) (الإكسير في قواعد علم التفسير): لسليمان بن عبد القوي الحنبلي المعروف بالطوفي (ت: ٧١٦هـ)، وقال في سبب تأليفه لهذا الكتاب: "فإنه لم يزلْ يتلجلجُ في صدري إشكال علمِ التفسيرِ، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أر أحدًا منهم كشفه فيما ألَّفه، ولا نحاه فيما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيقِ، الناكبةُ عن جمرِ الطريقِ؛ لوضع قانونٍ يعوَّلُ عليه، ويصار في هذا الفنّ إليه، فوضعت لذلك صدرَ هذا الكتاب، مُرْدِفًا له بقواعدَ نافعةٍ في علم الكتابِ، وسميتُه: "الإكسير في قواعد علم التفسير"، فمن ألَّفَ على هذا الوضعِ تفسيرًا ، صار في هذا العلمِ أوَّلاً وإن كان أخيرًا ، ولم أضع هذا القانون لمن يجمدُ عند الأقوالِ ، ويصمدُ لكلِّ من أطلق لسانَه وقال ، بل وضعته لمن لا يغترُّ بالمحالِ ، وعرف الجالَ بالحقِّ ، لا الحقَّ بالرجالِ"[٢].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١٨/١).

(٢) الإكسير في قواعد التفسير (ص: ٢٧)، والعجيب أن دار الأوزاعي نشرته باسم الإكسير في علم التفسير، رغم أن المؤلف صرح في المقدمة أنه في قواعد التفسير.

٢) مقدمة في أصول التفسير لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ): وهذا المؤلف يتضمن كلامًا نفيسًا جدًّا كما وصفه الإمام السيوطي في الإتقان[١] على صغر حجم هذه المقدمة، وضمن أغلبها ابن كثير في مقدمة تفسيره، وشرحها عددٌ من المعاصرين.وهذا الاسم (مقدمة في أصول التفسير) ليس من وضع ابن تيمية بل هو من وضع مفتي الحنابلة بدمشق جميل الشطي الذي طبع الكتاب سنة (١٣٥٥هـ)، أما ابن تيمية فقد أشار في بداية المقدمة إلى أنه كتب هذه المقدمة بناء على طلب بعض إخوانه لتتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره، فأشار بذلك إلى أنه وضع كلمات هذه المقدمة لتتضمن: أهم أصول التفسير، ومناهج المفسرين.

٣) أشار ابن القيم (٧٥١هـ) إلى أنه كتب في أصول التفسير، وذلك عند قوله في كتابه "جلاء الأفهام في فضل الصلاة على مُحَمَّد ﷺ خير الأنام": "والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب... ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير"[٢]...فهل له رسالة مستقلة في أصول التفسير؟ يحتمل ولكنها لم تصل إلينا، ويحتمل أن مراده أنه قد ذكر ذلك في كتبه التي أشارت إلى بعض قواعد التفسير وأصوله مثل كتابه: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن[٣].

٤) (الفوز الكبير في أصول التفسير): لولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ).

٥) العون الكبير شرح الفوز الكبير لسعيد أحمد بن مُحَمَّد يوسف البالنبوري: وهو شرح الكتاب السابق.

٦) (الإكسير في أصول التفسير): لمحمد صديق خان بن السيد حسن الحسيني القنوجي الهندي المحدث أمير مملكة بهوبال (ت ١٣٠٧هـ).

٧) (أصول التفسير وقواعده): لخالد العك.

٨) (بحوث في أصول التفسير) للصباغ.

٩) (بحوث في أصول التفسير ومناهجه) للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي.

١٠) (التيسير في أصول التفسير): للدكتور عبد الحق القاضي.

١١) (فصول في أصول التفسير): للدكتور مساعد الطيار، ثم أصدر: (المحرر في أصول التفسير).

---

(١) انظر: الإتقان(٢/ ٤٧٢).

(٢) جلاء الأفهام (ص: ١٥٩).

(٣) قال شيخنا الشيخ المحقق عبد الله يوسف الجديع في هذا الموضع: "جاء ذكر كتاب " الفوائد المشوقة لعلوم القرآن" منسوبًا لابن القيم ﷺ، وهذا الكتاب في التحقيق لا تصح نسبته لابن القيم ﷺ ، وقد كنت لاحظت منذ سنين طويلة تزيد عن ربع قرن أن أسلوب هذا الكتاب يجافي منطق ابن القيم ومفرداته وطبيعة إنشائه، فوقع في نفسي منه. ولم أجد من عزاه لابن القيم ﷺ ، ووجدت وقتها من العلامات على كونه ليس له ما ضمنه من القول بالمجاز، ومعلوم بوضوح تام إنكار ابن القيم للمجاز، بل بالغ حتى نعته بالطاغوت، في كتاب " الصواعق المرسلة"، ثم وجدت من بعد من وافق ما كنت صرت إليه من عدم صحة نسبة هذا الكتاب لابن القيم ﷺ، كالعلامة المحقق بكر أبو زيد، وعنايته بابن القيم متميزة منذ عهد بعيد. وكذا رأيت مثل ذلك لغيره أيضا...". ينظر كتاب ابن القيم الجوزية حياته آثاره موارده، لبكر أبو زيد (ص: ٢٩١. ٢٩٢). وذكر المحقق الدكتور زكريا سعيد الأدلة على أن هذا الكتاب لا تصح نسبته إلى ابن القيم ﷺ، مؤكدًا نسبته إلى ابن النقيب أبي عبد الله مُحَمَّد بن سليمان بن الحسن جمال الدين البلخي المقدسي الحنفي (ت ٦٩٨ هـ).

المجموعة الثانية: كتب في قواعد التفسير:

يكاد أن يكون مصطلح قواعد التفسير مرادفًا لمصطلح أصول التفسير، ومن الكتب التي أُلِّفت بهذا الاسم:

١) (التيسير في قواعد علم التفسير): لمحمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٩هـ).

٢) (القواعد الحِسان لتفسير القرآن): للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ).

٣) (قواعد التفسير جمعًا ودراسة): للدكتور خالد بن عثمان السبت، وهو كتاب قيم يعيبه طول النقول دون المناقشة والنقد لبعض الآراء التي ينبغي فيها مثل ذلك.

٤) (قواعد الترجيح عند المفسرين): للشيخ خالد الحربي، ويؤخذ عليه عدم التعمق في بعض العلوم التي تشكل مصدرًا لهذه القواعد كعلم القراءات مما يؤدي إلى استنتاج قواعد محل نظر.

المجموعة الثالثة: كتب تتكلم عن أصول التفسير أو تشير إلى شيء منها، وعناوينها عامة، ومنها:

١) كتاب (جواهر القرآن): لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ): وهو من أوائل المحاولات لتأسيس كتاب مستقل في أصول التفسير، وذكر عنه تلميذه ابن العربي أنه كتب في قانون التأويل[(١)].

٢) كتاب (قانون التأويل): للقاضي أبي بكر بن العربي، والكتاب محاولة تأسيسية لبيان كيفية فهم القرآن الكريم وإن كان ينحو نحو النقاش العقدي.

٣) (الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير)، وهو جزء من كتاب إيثار الحق على الخلق لمحمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ).

٤) كتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور مُحَمَّد حسين الذهبي (ت١٩٧٧م)، وهو كتابٌ جامع بين منهجين: منهج أصول التفسير، ومنهج مناهج المفسرين...وهو كتابٌ قيمٌ.

٥) (النبأ العظيم)، و(مدخل إلى القرآن الكريم): للدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز(ت١٩٥٨م)، والكتابان من الكتب النفيسة التي تشكل مدخلاً مهمًا لمفسر القرآن الكريم.

٦) (المدخل إلى الدراسات القرآنية): للشيخ أبي الحسن الندوي (ت١٩٩٩م)، وهو من الكتب النفيسة التي تضمنت فوائد مختلفة في فكرتها وأسلوبها.

٧) (تطور تفسير القرآن (قراءة جديدة): للدكتور محسن عبد الحميد، وهو كتاب قيم إلا أنه في مناهج المفسرين مع تضمنه أصولاً في التفسير، ويتميز بحس نقدي عالٍ، وفوائد مهمة، وإن كان رجوعه للمصادر الأصلية في أسس العلوم يعتريه الضعف.

المجموعة الرابعة: كتب علوم القرآن:

فكتب علوم القرآن، بل معظم أصول التفسير مستخرجة منها... ومن أشهرها:

---

(١) قال الشيخ المحقق عبد الله يوسف الجديع في هذا الموضع: " جاء ذكر" قانون التأويل" للغزالي نقلًا عن ابن العربي في جملة ما ألف في (قواعد التفسير)، والواقع أن هذا الكتاب رسالة صغيرة الحجم للغزالي مطبوعة يتحدث فيها عن التأويل بمصطلحه الكلامي الأصولي، وليست لها علاقة ظاهرة بقواعد التفسير....".

١) (الرغيب في علم القرآن (لعله الترغيب): لأبي عبد الله مُحَمَّد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ).

٢) (عجائب علوم القرآن): لأبي بكر مُحَمَّد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ).

٣) (المختزن في علوم القرآن): لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٤ هـ).

٤) (الاستغناء في علوم القرآن): لأبي بكر مُحَمَّد بن علي بن أحمد الأُذْفُوي (ت ٣٨٨هـ).

٥) (البرهان في علوم القرآن): لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠هـ)، وهو كتاب في التفسير توسع فيه بذكر علوم القرآن المتعلقة بلفظ الآيات ومعناها.

٦) (البيان الجامع لعلوم القرآن): لأبي داود سليمان بن نجاح المقرئ (ت٤٩٦هـ).

٧) (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، و(المجتبى في علوم القرآن): وكلاهما لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

٨) (البرهان في علوم القرآن): لأبي عبد الله بدر الدين مُحَمَّد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ).

٩) (الإتقان في علوم القرآن): لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ).

١٠) الكتاب الموسوعة: (الزيادة والإحسان في علوم القرآن): لمحمد بن أحمد بن عقيلة المكي(ت١١٥٠هـ).

المجموعة الخامسة: مقدمات المفسرين في كتب التفسير:

فقد أشار المحققون من المفسرين في مقدمات تفاسيرهم إلى أصول تفسيرية مثل:

١) مقدمة تفسير (جامع البيان عن تأويل القرآن): لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ).

٢) مقدمة (النكت والعيون): لأبي الحسن علي بن مُحَمَّد الماوردي (ت٤٥٠هـ).

٣) مقدمة (المحرر الوجيز): لأبي مُحَمَّد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت ٥٤٦هـ).

٤) مقدمة (الجامع لأحكام القرآن): لشمس الدين مُحَمَّد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ).

٥) مقدمة (التسهيل): لأبي بكر أحمد بن أبي القاسم المعروف بابن جزي الكلبي الأندلسي (ت ٧٤١هـ).

٦) مقدمة (تفسير القرآن العظيم): لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرسي الدمشقي (ت٧٧٤هـ).

٧) مقدمة تفسير (روح المعاني): لأبي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت١٢٧٠هـ).

٨) مقدمة تفسير جمال الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد سعيد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ).

٩) مقدمة (التحرير والتنوير): لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، وهي من أكثر المقدمات تحقيقًا وتنقيحًا في أصول التفسير.

١٠) مقدمة (أضواء البيان): لمحمد الأمين بن مُحَمَّد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).

المجموعة السادسة: كتب التفسير ذاتها:

فنجد قواعدَ التفسير وأصولَه مبثوثةً في كتب المفسرين كالتفاسير المشار إليها سابقًا، ويضاف إليها من مهمات مؤلفات التفسير: تفسير (فتح القدير) لقاضي القضاة مُحَمَّد بن علي الشوكاني(ت١٢٥٠هـ).

الأساس الخامس: استمداد علم أصول التفسير وقواعدِه:

من أين نستمد أصول التفسير؟

معنى استمداد العلم أي توقفه على معلوماتٍ سابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونيه، لتكون عونًا لهم على إتقان فهم ذلك العلم وتدوينه[١]، وفي نظري فإن ما يستمد منه التفسير صالح لأن يستمد منه علم أصول التفسير، وأهم مصادر علم التفسير:

المصدر الأول: القرآن الكريم: بالاستقراء، أو بالنظر إلى النص على أساس البحث عن قواعد كلية.

المصدر الثاني: السنة النبوية: بالاستقراء، أو بالنظر إلى النص على أساس البحث عن قواعد كلية.

المصدر الثالث: كلام أكابر المفسرين من الصحابة ﷺ وغيرهم إذا نصوا على قواعد كلية، أو باستقراء أقوالهم للوقوف على القواعد التي اعتمدوها.

---

(١) التحرير والتنوير(١/ ١٦)، ومثل ذلك علم الكلام فقد جعلوه مما يستمد منه التفسير. انظر: التحرير والتنوير(١/٢٦)، أصول التفسير وقواعده(ص: ٤٣)، وعند الكاتب فالعكس صحيح، إنما نحتاج إلى تفصيلات الآيات الكونية؛ لزيادة بيان إجمال القرآن فيها، مما يدخل في علم الإيمان الذي سمي علم الكلام.

المصدر الرابع: أصول الفقه: إذ حقيقتها أصول عامة للفهم الكلي، وما الفقه بمعنى علم الفروع إلا ثمرة من ثمار تفسير القرآن، فأصول الفقه تصلح أن تكون أصولاً للتفسير؛ لأن فروع الفقه بعض منه، ولذا لما نظم الشيخ مُحَمَّد الحسن بن أحمد الخديم نظمه عن أصول كلية للفقه سمى نظمه: إزالة الريب والأوهام عما يخل بالأفهام، وقال فيه:

حمـــدًا لمـــن رجـــوته يـقـيـــني عـــنْ كـــلِّ مـــا يـُخِـــلُّ باليـــقينِ

مـــن دركـــه في العجـــزِ عـــنْ إدراكِـــه واخـــتُصَّ بالملـــكِ بـــلا إشـــراكِه[١]

لماذا كانت أصول الفقه من مصادر أصول التفسير؟

وإنما كان أصول الفقه من مصادر أصول التفسير لوجهين:

١) أن علم أصول الفقه فيه الكثير من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة.

٢) أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، وهو من ثَمَّ آلة للمفسر، بل يمكن أن يقال: أصول الفقه هي أصول الفهم، فهي داخلة في جميع العلوم.

هنا تشعر بالنظر الثاقب للرازي رحمه الله، حيث قال مبينًا أثر علم الأصول في تنمية الملكة التفسيرية: "وهَذِهِ الدَّقائِقُ لا يُمْكِنُ فَهْمُها مِنَ القُرْآنِ إلّا بَعْدَ إتْقانِ عِلْمِ الأُصُولِ، وأقُولُ: يَبْعُدُ أنْ يَصِيرَ غَيْرُ عِلْمِ الأُصُولِ العَقْلِيِّ قاهِرًا في تَفْسِيرِ كَلامِ اللَّهِ تَعالى"[٢].

وهل الفقه مما يستمد منه علم التفسير؟

ليس الفقه مادة لعلم التفسير كما ذهب إلى ذلك السيوطي[٣]؛ إذ الفقه يستمد من الكتاب فرع التفسير على الحقيقة.

المصدر الخامس: اللغة والبيان والنحو والتصريف: إذ "علوم اللسان هادية للصواب في الكتاب والسنة"[٤].

إذا كانت هذه العلوم تمثل مدد علم التفسير كما تمثل مدد علم أصول التفسير فهل ينافي ذلك كون التفسير رأسَ العلوم الإسلامية؟:

الجواب: لا! إذ معنى كونه رأسَ العلوم الإسلامية أنه أصل لعلوم الإسلام على وجه الإجمال، فأما استمداده من بعض العلوم الإسلامية فذلك استمداد يقصد منه تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، وهو أصل لما استمد منه باختلاف الاعتبار[٥].

---

(١) طبع في مقدمة سلم المطالع (ص: ١٥).

(٢) تفسير الرازي (٢١/٤٥)، انظر: التحرير والتنوير(١/ ٢٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٤).

(٤) الاعتصام (١/٢٦).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٢٥).

الأساس السادس: لماذا لم توضع أصول للتفسير في عهد الصحابة ﷺ؟

أولاً: لأن الصحابة ﷺ لم يحتاجوا لذلك؛ فهم العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، وبسليقتهم العربية استغنوا عن وضع قواعدَ محددةٍ للتفسير، فالأصول العامة للتفسير كانت حاضرة في أذهانهم كمصادر التفسير، وأساليب اللغة العربية، ولذا وصف الله تعالى آياته بأنها بينات أي أنها مبينة بذاتها في لفظها وفي معناها وفي الدلالة على مصدريتها وهو الله ﷻ.

ثانيًا: لوجود سنة رسول الله ﷺ وهي تبين عن الله تعالى ما أراده من كلماته: ويدل على هذين السببين قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران:١٠١] أي "أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهارًا وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم"[(١)]، وقوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٨]، كما يمكنك أن تشعر باكتفاء الصحابة ﷺ بالجهد النبوي في بيان القرآن الكريم من خلال حديث صالح بن جبير أنه قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس ليصلي فيه، ومعنا رجاء بن حيوة يومئذ، فلما انصرف خرجنا معه لنشيعه، فلما أردنا الانصراف قال: إن لكم عليَّ جائزة وحقًّا أن أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ فقلنا : هات يرحمك الله فقال : كنا مع رسول الله ﷺ معنا معاذ بن جبل رضي الله عنه عاشر عشرة فقلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا آمنا بك واتبعناك؟ قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهركم يأتيكم الوحي من السماء؟! بلى! قوم يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه... أولئك أعظم منكم أجرًا، أولئك أعظم منكم أجرًا، أولئك أعظم منكم أجرًا»[(٢)].

ثالثًا: لأنهم عرفوا أسباب النزول وطبيعة الحال التي نزل فيها الوحي...وهنا يرد حديث ابن عباس رضي الله عنهما في اختلاف الأمة مع أن كتابها واحد.

هل معنى قولنا نزل القرآن عربيًّا أن كل الناس يفهمونه على قدر متساوٍ؟

الجواب: لا! بل يفهم العامة المعاني المجملة فيه، أما الدقائق والتفاصيل فقد بين الله تعالى ذكره أنها لمن يستنبطه من أولي الذكر، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ويفسر ابن كثير رحمه الله معنى هذه الآية، فيقول: "أي هذا القرآن آيات بينة

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٤).

(٢) أحمد (١٧٠٧)، وصححه الأرناؤوط واللفظ رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٤٠)، وقال الألباني:" وهذا إسناد جيد؛ على ضعف في عبد الله بن صالح كاتب الليث، إلا أن الحافظ قد استظهر من أقوال الأئمة فيه: أن ما يجيء عنه من رواية أهل الحذق كيحيى بن معين، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم؛ فهو من صحيح حديثه؛ فإن هذا من حديث البخاري عنه وقد توبع". سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٩٠٧)

واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء. يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا"[١]، وقرر ابن خلدون ﷺ ذلك في قوله:

"وأما التفسير: فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"[٢].

فهل يعني ابن خلدون ﷺ أنهم كانوا على قدرٍ متساوٍ في فهم القرآن الكريم؟.

الجواب: لعل ابن خلدون لا يريد ذلك، بل يكون معنى تقريره: "أن كل واحد من الصحابة ﷺ كان عندما يقرأ القرآن يفهم ظاهره العربي ألفاظًا وتركيبًا، أما ما حوله من العلوم والمعارف وقضايا الحلال والحرام، وأسباب النزول، وما وراء الألفاظ والمعاني من الاستنباطات الدقيقة، فهذا لم يكن يعرفه إلا العلماء من الصحابة ﷺ الذين اشتهروا بالتفسير والفتيا ومعرفة السنة الشريفة"[٣]، ومما يدل على أن ابن خلدون ﷺ لم يقصد الإطلاق في كلامه السابق قوله: "فكان النبي ﷺ يبين المجمل، و يميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه، فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات، ومقتضى الحال منها منقولا عنه"[٤]، فقد كان الصحابة ﷺ يفهمون القرآن إجمالاً، أما عند التفصيل والتدقيق فيتفاوتون، ويتخصص منهم أولو الذكر، كما في قوله تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٣-٤٤) **وأبرز ما يخبرك ذلك حقيقة تفاوت الصحابة ﷺ في فهم القرآن.**

قاعدة: يتفاوت الناس -ومنهم الصحابة ﷺ- في فهم القرآن الكريم:

فـ"قد يظهر لبعضهم ما لم يظهر لبعض آخر منهم في تفسير القرآن الكريم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا: أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة ﷺ، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها"[٥].

هلَّا ذكرت بعض الأمثلة التي تدل على تفاوت الصحابة ﷺ في فهم القرآن؟

من أمثلة ذلك:

---

(١) تفسير ابن كثير(٣ /٥٥٢).

(٢) مقدمة ابن خلدون (١/٥٥١).

(٣) تطور تفسير القرآن (ص:٢٣)، وهذا بخلاف ما ذهب إليه الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ٣٠) من أن ابن خلدون مال في كلامه هذا إلى معرفة الصحابة للتفاصيل والدقائق...فكلامه واضح في أنهم فهموا الفهم العام، فلا يوجد ما يقتضي نقد كلامه أو الاستدراك عليه، والدليل على ذلك سماع المسلمين والكفار له دون أن يقول أحد منهم إن الكلام الذي ذكرته مستغلق.

(٤) مقدمة ابن خلدون (١/٥٥١).

(٥) التفسير والمفسرون (١/ ٣٩).

أولاً: يتميز بعضهم في فهم أمرٍ، ولا يدركه آخرون كما في حديث عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ المتقدم حول الخيط الأبيض والخيط الأسود (١).

ثانيًا: ومن ذلك ما جاء عن أنس ﷺ: "أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر"(٢)، هذا مع أن سيدنا عمر ﷺ هو الوارد فيه حديث فضلِة اللبن التي شربها على إثر النبي ﷺ، وأولوه بالعلم، ولا أظنه يعني أنه لا يعرف الأبَّ، بل يعني وجوه الارتباط ودقائق الاستنباط، كما ورد في قصته مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير سورة النصر.

ثالثًا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن الشُّرَّاب كانوا يضربون على عهد رسول الله ﷺ بالأيدي والنعال والعِصِي حتى توفي رسول الله ﷺ، وكانوا في خلافة أبي بكر ﷺ أكثر منهم في عهد رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ: لو فرضنا لهم حدًّا فتوخى نحوا مما كانوا يضربون في عهد رسول الله ﷺ فكان أبو بكر ﷺ يجلدهم أربعين حتى توفي، ثم قام من بعده عمر، فجلدهم كذلك أربعين، حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد كان شرب، فأمر به أن يجلد فقال: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله ﷻ؟ فقال عمر ﷺ: في أي كتاب الله تجد أني لا أجلدك؟ فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣] فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا: شهدت مع رسول الله ﷺ بدرًا والحديبية والخندق والمشاهد فقال عمر ﷺ: ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن هذه الآيات أنزلت عذرًا للماضين، وحجة على الباقين؛ لأن الله ﷻ يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأخرى ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ فإن الله ﷻ قد نهى أن يشرب الخمر فقال عمر ﷺ: صدقت فماذا ترون؟ فقال علي ﷺ: نرى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة، فأمر عمر ﷺ فجلد ثمانين(٣).

رابعًا: ويبين هذا التفاوت ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر ﷺ يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني. فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا. وقال بعضهم: لا

---

(١) البخاري (١٩١٦)، مسلم (٢٥٠٠).

(٢) المستدرك (٣٨٩٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، سنن سعيد بن منصور (٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤).

(٣) المستدرك (٤/٤١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، سنن البيهقي الكبرى٣/ ١٦٦.

ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا. فقال لي: يا ابن عباس أكذلك قولك؟ قلت: لا! قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١].

خامسًا: ومنها المذكورة في مبحث غريب القرآن –الآتية–توضح ذلك وتبينه، والأمثلة كثيرة، غير أن مسروقًا الأجدع رحمه الله يوضح طبيعة تفاوت فهم الصحابة رضي الله عنهم في قوله: "جالست أصحاب مُحَمَّد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ– يعني الغدير– فالإخاذ يُروي الرجل، والإخاذ يُروي الرجلين، والإخاذ يُروي العشرة، والإخاذ يُروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم"[٢].

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله تعالى–:

تفـــاوَتَ النـــاسُ كصـــحْبِه الأُوَلْ في فهْمِـــه، والخـــيْطُ الاَسْـــوَدُ مَثَـــلْ

ماذا يفيدنا هذا البحث في تفسير القرآن الكريم؟

أولاً: عدم وجود معصومٍ في تفسير القرآن الكريم بعد النبي ﷺ إلا أن يكون إجماعًا.

ثانيًا: هذا يقتضي أن المسلمين يحتاج بعضهم إلى بعض في فهم القرآن الكريم وتطبيقه، وتواصيهم في ذلك بالحق، وتواصيهم بالصبر. وهذا يعني أن يكون من أهم الأولويات: تشكيل اللجان الشرعية التي تبين مراد الله ﷻ في النوازل المختلفة، فردية كانت أو جماعية، كما يعني ضرورة وجود حلقات المدارسة العامة، وكذلك إيجاد المؤسسات العلمية التي تخرج الراسخين في العلم.

---

(١) البخاري (٤٢٩٤).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٤٣)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص: ١٦١)، وقال المحقق: إسناده صحيح، والإخاذ: مجتمع الماء شبه الغدير.

أسئلة تقويمية:

س١: ما تعريف علم أصول التفسير؟

س٢: ما أهمية علم أصول التفسير؟

س٣: اذكر أهم المراحل التي مر بها علم أصول التفسير.

س٤: مَنْ أول من صنف في أصول التفسير وأصول الفقه؟ وما العلاقة بينهما؟

س٥: ما الأشكال التي ظهر فيها علم أصول التفسير في أول الأمر؟

س٦: وضح العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن.

س٧: اذكر بعض المؤلفات في أصول التفسير.

س٨: ما أهم مصادر علم أصول التفسير؟

س٩: لماذا كانت أصول الفقه من مصادر أصول التفسير؟

س١٠: لماذا لم توضع أصول للتفسير في عهد الصحابة ﷺ؟

س١١: اذكر بعض الأمثلة التي تدل على تفاوت الصحابة ﷺ في فهم القرآن.